روح الانتماء الأسري عند ابن دراج القسطلي

م.م. خولة جبار حمد

كلية الآداب/ جامعة القادسية

Khawla.jabbar@qu.edu.iq

الخلاصة :

حرص كثير من المهتمين بدراسة الأدب الأندلسي على البحث والتنقيب في موضوعاته وقضاياه، كما اهتمت فئة منهم بدراسة الحياة الأدبية لعدد من الأسماء اللامعة في سماء هذا الأدب. وعلى الرغم من هذا الاهتمام فالأدب الأندلسي ما زال مفتقدة الكثير من الأقلام لتظهر مكنونه، وتكشف مخبؤه، وما زالت ينابيعه تنتظر روادها بلهفة. وهذا ما دفعني لدراسة تلك الشخصية الأدبية التي احتلت مكانة سامقة في آفاق الأدب الأندلسي، غير أنها لم تحظ – بما حظي به غيرها من الشخصيات – بالدراسة والاهتمام، ولذلك عرف صاحبها بمتنبي الأندلس، وهو أبو عمر أحمد بن محمد دراج القسطلي الذي حفظت بعض المصادر والكتب ترجمته وكثيرا من أشعاره، وعلى الرغم من ذلك فإن كثيرا من أخباره ظلت مجهولة خاصة المرحلة الأولى من حياته، لذا جاء هذا البحث تحت عنوان (روح الانتماء الاسري عند ابن دراج القسطلي).

الكلمات المفتاحية : ابن دراج، الأسرة، العاطفة الأسرية .

The spirt of fomily belonging Works of Ibn Daraj al-Qastly

Asst. Lec. Khawla jabbar Hamad

University of Al-Qadisiyah / college of Arts

Abstract:

Andalusian Literature has been always a subject of interest to researchers to investigate and unveil its subjects and issues. A number of those researchers have been concerned with studying the brilliant names in the world of this literature. Nevertheless, Andalusian literature is still lacking serious studies that may show its real significance, its springs are still impatiently awaiting its companions. This is what instigated me to study an influential literary figure who occupied a high position in the horizons of Andalusian literature, but he unfortunately did not receive, as other figures received, the importance he deserved; he who is entitled as al-Mutanabbi of al-Andalus. He is Abu Omar Ahmed bin Mohammad Daraj al-Qastly whose poetic productions were analyzed by many sources and translated into different languages. Yet, much of his biography remained unknown, especially the first stage of his life. Thus, this research paper is entitled Family Affection in the Works of Ibn Daraj al-Qastly.

Keywords: Ibn Daraj al-Qastly, Family, Family emotional

المقدمة:

حرص كثير من المهتمين بدراسة الأدب الأندلسي على البحث والتنقيب في موضوعاته وقضاياه، كما هتمت فئة منهم بدراسة الحياة الأدبية لعدد من الأسماء اللامعة في سماء هذا الأدب. وعلى الرغم من هذا الاهتمام فالأدب الأندلسي ما زال مفتقدة الكثير من الأقلام لتظهر مكنونه، وتكشف مخبوءه، وما زالت ينابيعه تنتظر روادها بلهفة. كما أن هذا الاهتمام يأتي– غالبًا– منحصرًا في دائرة بذاتها على حساب دوائر أخرى، كأن يتمحور البحث والتحليل حول موضوع أو شخصية أو ظاهرة أو قصيدة، مما يفتح باب الاعتقاد أن الأدب الأندلسي شحيح في مادته ونتاجه، وهو بلا شك اعتقاد خاطئ ومرفوض، نظرا لامتداد المدة الزمنية والرقعة المكانية، وما ورثه هذان البعدان من نتاج ثقافي ضخم في مختلف مجالاته بشكل عام، وفي المجال الأدبي على وجه الخصوص .

ومما دفعني لذكر هذه الحقيقة تلك الشخصية الأدبية التي احتلت مكانة سامقة في آفاق الأدب الأندلسي، غير أنها لم تحظ – بما حظي به غيرها من الشخصيات – بالدراسة والاهتمام، تلك الشخصية التي أثنى عليها صاحب يتيمة الدهر فقال:" كان بصقع الاندلس كالمتنبى بصقع الشام، وهو أحد الفحول"[i]، ولذلك عرف صاحبها بمتنبي الأندلس، وهو أبو عمر أحمد بن محمد دراج القسطلي الذي حفظت بعض المصادر والكتب ترجمته وكثيرا من أشعاره.

لا توجد مصادر في المستند الحالي. وعلى الرغم من ذلك فإن كثيرا من أخباره ظلت مجهولة خاصة المرحلة الأولى من حياته، والتقصير نحو هذا الشاعر لا يتحمله الباحثون المعاصرون بمفردهم وإنما شاركهم فيه القدماء بشهادة ابن حزم الأندلسي حين قال مشيرة إلى ابن دراج القسطلي: "إن من ذكره لم يوفه حقه، ولا أعطاه وقفه، ولا استوفى تقدمه وسبقه، ولو أوفي الأيام واستنفد القراطيس والأقلام .."[ii]

ومن بين الدراسات القليلة الحديثة التي أولت اهتمام بهذه الشخصية، لفت انتباهي ما ذكره د. أحمد هيكل عن صوت شعري تردد كثيرة بين أصداء قصائده وهو صوت العاطفة الأبوية الذي انطلق من" إحساسه العميق بالأسرة وتعلقه الشديد بالزوجة والأولاد"، وربما كان هذا الموضوع أهم موضوعات ابن دراج الشعرية الإنسانية التي تتخلل قصائده.. وهذه ظاهرة قد لا يشاركه فيها شاعر عربي آخر. هذه الظاهرة – التي أشار إليها الدكتور محمود علي مكي في تحقيقه لديوان ابن دراج القسطلي، ثم عرضها د.أحمد هيكل وأطلق عليها(العاطفةالأسري)

أثارت لدي بعض التساؤلات وأهمها: ما هي الدوافع التي ألحت على ابن دراج كي يعرج- مرارة- خلال قصائده صوت محيط أسرته؟ وهل أوفى ابن دراج هذا الموضوع حقه، أم ذكره فكرة عابرة بين موضوعات قصائده؟ وهل تمكن الشاعر من أن يبني جسرا متينة بينه وبين المتلقي أثناء عبوره للمواقف الأسرية؟ بمعنى آخر: ما مدى توافر الصدق الفني في شعره الأسري؟ وهل اعتمد الشاعر على وسائل لغوية وأساليب فنية ساهمت في تجسيد هذه الظاهرة وإبراز أبعادها المعنوية؟ في هذا البحث سنجيب عن كل هذه التساؤلات وبيان اهمية هذا الامر.

وقد اقتضى موضوع الدراسة على ان يكون على مبحثين تسبقهما مقدمة بسيطة وتعقبهما خاتمة.

المبحث الأول، فقد خصصته لدراسة حياة الشاعر واهم الاحداث التي طرأت فيها..

والمبحث الثاني فقد خصص لدراسة روح الانتماء الاسري عند الشاعر والابيات الشعرية المتعلقة بالموضوع.

المبحث الأول

ابــن دراج القسطلـــي

١ - حياته:

اسمه ولقبه وكنيته: ·

هو أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن درّاج الأندلسي، يكّنى أبا عمر، ويعرف بابن درّاج[٣].

أما لقبه القسطّلي، فنسبة إلى بلدة (قسطّلة) في غربي الأندلس، التي اشتهرت في كتب الجغرافيين والمؤرخين الأندلسيين باسم(قسطّلة دراج)، لأن دراجاً جّد الأسرة الأعلى، ولأن بنيه تداولوا رياستها[٤].

نسبـــه:

ابن درّاج ذو نسب عريق؛ فأسرته تنتمي إلى قبيلة صنهاجة، "وهي قبيلة مشهورة من حمير، وهي بالمغرب، ينسب إليها خلق كثير من الأمراء والعلماء"[٤] ويبدو أن أجداده دخلوا الأندلس منذ أن افتتح طارق بن زياد هذه البلاد سنة(٩٢هـ)."[٥]

مولده ونشأته:

ولد ابن دراج سنة(٣٤٧هـ) ،من أسرة نبيلة، مرموقة الشأن، ولا يعرف شيء عن المرحلة الأولى من حياته؛ إذ تغفل كتب الأدب والّتاريخ التي ترجمت له أي خبر عن طفولته وفتوته. إلا أننا لو عدنا إلى الكتب التي رصدت صورة المجتمع الأندلسي آنذاك، لوجدنا أن ابن دراج قضى سني طفولته وشبابه في عهد الخليفة عبد الرحمن الّناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ)، وهي مدة عاش فيها المجتمع الأندلسي – وابنه الحكم المستنصر(٣٥٠-

٣٦٦هـ)عهداً من الازدهار، وشهدت فيها الأقطار الأندلسية، ولاسيما قرطبة نهضة علمية ثقافية تضاهي نهضة كبرى العواصم المشرقية، وكان للأدب الحظ الأوفر من هذه النّهضة، إذ راجت سوقه رواجاً منقطع النّظير. كما أننا لو اطلعنا على شعره لاستنتجنا بيسر أنّه نشأ نشأة أدبية متميزة؛ فُتن فيها بالتّراث المشرقي، فتتلمذ عليه، وحصل ثقافة دينية ولغوية وتاريخية عالية؛ إذ ينضح شعره بكثير من الإشارات التّاريخية والدينية التي برع في توظيفها في سياق مدائحه(٦).

حياته في ظلّ الدولة العامرية:(٣٨٢ –٣٩٩)

قضى ابن دراج حوالي ستّة عشر عاماً في ظلّ المنصور العامري، وولديه عبد الملك المظّفر، وعبد الرحمن شنجول(٣٩٩–٣٨٢ هـ)، وقد احتفظ ديوانه بجانب لا بأس به من شعره في تخليد مآثر المنصور وولديه. ولم ترو لنا كتب الأدب والتّاريخ التي ترجمت له أنّه اتّصل بحاكم أندلسي قبل المنصور العامري؛ إذ إن أول ما تجود به علينا من أخباره قدومه إلى قرطبة عاصمة الأندلس عام(٣٨ هـ)، بعد أن آنس من نفسه نضجاً ثقافياً أدبياً يمكنه من مجاراة فحول الشّعراء في بلاط المنصور العامري(٧).

وأول ما أنشده ابن دراج في مجلس المنصور قصيدة هائية عارض بها قصيدة لصاعد بن الحسن البغدادي اللغوي(٨)؛ أحد كبار الشعراء في مجلس المنصور آنذاك. وقد عدها أدباء عصره من مذهبات شعره. ومستهلّها – من الطويل – :

أضاء لها فجر النُّهى فنهاها عن الدنفِ المضنى بِحر هواها(٩)

وفيها أجاد تصوير مشهد وداعه لأسرته، ووصف رحلته الشاّقة من بلده(قسطّلة) إلى قرطبة، وما عاناه من وعثاء السفر في سبيل أن يحوز عطف العامري ونواله.

ظفرتْ هائية ابن دراج بإعجاب المنصور وتقديره، لكّنها كانت مبعث حسد له؛ إذ سارع الوشاة إلى إثارة الشكوك حول شاعريته، واتّهموه بالسرق والانتحال، وأنّه لا يتقن إلا المعارضة.

أثرت حادثة اتّهامه بانتحال الشعر في نفسه تأثيراً بالغاً؛ فلم يزل يجود شعره، وينمي ثقافته حتى دفع عن نفسه تهمة السرقة والانتحال، وأكد شاعريته بالحجة البينة، فتمكنت منزلته عند المنصور، ولم يزل يرتقي حّتى أضحى الشاعر الأول في بلاطه.

وأتاحت له جودة كتابته تقلُّد منصب الكتابة في ديوان الإنشاء، فتألّق اسمه وذاعت شهرته، ولازم المنصور طوال مدة حكمه في السلم والحرب، والحلّ والتّرحال، يتغّنى بانتصاراته، ويمجد مثله العليا شاكراً له أياديه عليه، على نحو يذكرنا بشأن المتنبي مع سيف الدولة.

وبعد أن حّلت المنية بالمنصور سنة(٣٩٢ هـ) آل أمر الحجابة إلى ولده عبد الملك المظّفر الذي حذا حذو أبيه في تدبير شؤون البلاد، فظلّت الأندلس في عهده تنعم بالرخاء والأمن والازدهار، غير أنّه كان أقلّ حظاً من أبيه في ميدان الأدب والثّقافة، فشهدت الحركة الأدبية في عهده فتوراً ملحوظاً، إلا ما كان من شأن

شعراء ديوان النّدماء، فقد أقرهم على مراتبهم احتراماً منه لنهج أبيه وسياسته، فاحتفظ بابن دراج شاعراً في بلاطه، وكاتباً في ديوان إنشائه، وانبرى ابن دراج يتغّنى بانتصارات المظّفر على أعدائه، ويسجل أمجاده، كما كان شأنه مع أبيه المنصور.

ومن أبرز قصائده فيه رائيته التي بارك فيها بانتصاراته على مملكة(ليون) في سنة(٣٩٥ هـ)، ومطلعها – من الطويل– :

لئِن سرتِ الدنيا فأنت سرورها وإن سطعت نوراً فوجهك نورها
سلام على الأيام ما شمت للعلا أهِلَّتــها واستقبلتــك بــدورها
وبوركتِ الأزمان ما أشرقت لنا بوجهك هيجاواتُــها وقصــورها
فلا أوحشت من عز ذِكرِك دولةٌ إليك انتهى مأمورها وأميــرها[١٠]

حياته في ظلّ الفتنة(٣٩٩ -٤٢٢هـ):

بعد أن نجح بنو أمية وحلفاؤهم في الثّورة على عبد الرحمن شنجول عام(٣٩٩هـ) اّتفقوا على خلع الخليفة هشام المؤيد، ومبايعة محمد بن هشام ابن عبد الجبار بن عبد الرحمن النّاصر الملقّب بالمهدي[١١]؛ الذي اشتهر بطيشه وتسرعه، فحوصر وخُلِع. ولا ريب في أن الأندلس قد دفعت ثمناً باهظاً مدة هذه الفتنة الجائرة؛ إذ عصفت بها الّثورات والّنكبات، وشتتت شمل أهليها. أما الأدباء والشعراء فقد تخبطوا في غمرات هذه الفتنة، وهكذا كانت حال ابن دراج؛ إذ عاش حياة تغرب وشقاء، يطوف أرجاء البلاد ميمماً وجهه شطر ذوي الّنفوذ والسلطان. وأول من مدح المهدي عندما تولّى حكم الأندلس، فسليمان بن الحكم الملقَّب بالمستعين[١٢]، ثم بني حمود ممن حكموا قرطبة[١٣]

غير أّنه لم يجد في هؤلاء من يقدر شعره ويثيبه عليه، كما فعل المنصور العامري من قبل، فخرج إلى شرق الأندلس حيث قامت دويلات لبعض الموالي العامريين؛ فمدحهم، لكّنهم تنكروا له، ولم يجبروا عثرته. وانتقل أخيراً إلى بلاط التُّجيبيين، واستقربه المطاف حيناً من الزمن في رحابهم؛ إذ وجد من أمير سرقسطة منذر بن يحيى التّجيبي[١٤]، وولده يحيى بن منذر تقديراً لمكانته الشعرية، وأصاب منهما رزقاً وافياً، فأثنى عليهما، وأعلى شأنهما في شعره.

وقد أوجز لنا ابن حيان سيرة ابن دراج في ظلّ الفتنة الجائحة، فقال: "وكان ممن طوّحتْ به تلك الفتنة الشّنعاء، واضطرته إلى النُّجعة، فاستقرى ملوكها أجمعين، ما بين الجزيرة الخضراء، فسرقسطة من الثغر الأعلى؛ يهز كلاً بمديحه، ويستعينهم على نكبته، وليس منهم من يصغي له، ولا يحفظ ما أضِيع من حّقه... إلى أن مر بعقوة منذر بن يحيى أمير سرقسطة، فألقى عصا سيره عند من بوّاه، ورحب به وأوسع قِراه؛ فلم يزلْ عنده، وعند ابنه بعده، مادحاً لهما، مثنياً عليهما، رافعاً من ذكرهما، غير باغ بدلاً بجوارهما."[١٥]

غير أن حبل الود لم يلبث أن انقطع بينه وبين التُّجيبيين، بعد أن سعى الوشاة به، فغادر(سرقسطة)، وهو في الثانية والسبعين من عمره بعد أن مكث بها أحد عشر عاماً، وشد رحاله إلى(بلنسية)، فلم يجد من حاكمها أذناً صاغية، فغادرها إلى(دانية)، ومدح حاكمها مجاهد العامري، ولبث فيها مدة وجيزة إلى أن توّفي سنة(٤٢١هـ)[١٦].

وقد برع ابن دراج في تصوير حاله في أثناء الفتنة، وهو يطوف أرجاء الجزيرة، يستدر عطف الحّكام، ويستميل قلوبهم بأسلوب مؤّثر ينبض بالزّفرات والآهات.

ومن أمثلة ما قاله قصيدة تعد من عيون شعره السياسي، وهي أولى قصائده في بلاط منذر التّجيبي، ومطلعها – من الكامل – :

بشراك من طولِ التَّرحل والسرى صبح بروح السفرِ لاح فأسَفرا[١٧]

وفيها أجاد تصوير فقره المدقع، وتشتته بعد أن قلبت له الحياة ظهر المجن، يقول – من الكامل :

فلئِن صفا ماء الحياةِ لديك لـي فبما شرِقتُ إليك بالماء الصرى

ولئِن خَلعت علي برداً أ خضرا فلقد لبستُ إليك عيشاً أغبـــرا

ولئِن مددتَ علـي ظِـلاً بـارداً فلكم صليتُ إليك جوّاً مسعــرا[١٨]

وهكذا نجد أن ابن دراج عاصر الأندلس في يومي نعيمها وبؤسها، إذ مرتْ حياته بمرحلتين رئيستين متباينتين؛ الأولى: في ظلال الدولة العامرية، والثانية: في ظلال الفتنة، وقد طبعتْ كلّ مرحلة منهما حياة ابن دراج وموضوعاته الشعرية بميسمها الخاص، وإن كانت معظم أشعار المرحلتين تحمل عنوان المدح.

ثقافتـــه واخلاقـــه

لا نكاد نظفر إلا بإشارات مختصرة عن ثقافة ابن دراج لا تشكل في مجملها صورة جلية، إلا أن ديوانه يرسم لنا صورة شاعر مثّقف غزير المعلومات، وكاتب مترسل بارع.

وتعد سمة الّنضج الثقافي؛ اللغوي والديني والتاريخي من أهم السمات التي تّتضح في ديوانه، وربما كان مما حفَّزه على تدعيم مخزونه الّثقافي؛ الشعري والّنثري، المشرقي والأندلسي، اتهام الحساد له بانتحال الشعر وسرقته، وكي يؤكد كذب هذه الاتهامات انكب على تراث العرب الأدبي، ولاسيما أشعار السابقين قراءة ودرساً، وبذلك غدتْ ثقافته الثرة سلاحه الذي اعتمده، ليظهر تفوقه وعبقريته.

ويتراءى لمن يتتبع شعر ابن دراج أنّه كان رجلاً حسن السيرة، مرهف الإحساس، مؤثراً حياة الجد والاستقامة، ومبتعداً كلّ البعد عما انغمس فيه كثيرون من أدباء عصره من لهو ومجون[١٩].

وفاتـــه:

توّفي في مدينة(دانية) بعد أن أمضى سنتين في ظلّ أميرها مجاهد العامري، وكانت وفاته ليلة الأحد لأربع عشرة بقين من جمادى الآخرة سنة(٤٢١ هـ)، وله من العمر أربع وسبعون سنة[٢٠].

آراء العلماء والنقاد في شعر ابن دراج القسطلي:

ومن آراء النقاد القدامى عن ابن دراج قول أبي عامر بن شهيد"الفرق بين أبي عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع النظام شديد أسر الكلام، ثم زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب وما تراه من حوكة للكلام وملكة لإحرار اللفظ وسعة صدره وجيشة بحره وصحة قدرته على البديع وطول طلقه في الوصوف وراحته بما يتعب الناس وسعة نفسه فيما يضيق الأنفاس"[٢١].

وقال عنه الحميدي[٢٢]"وهو معدود في جملة العلماء والمقدمين من الشعراء والمذكورين من البلغاء وشعره كثير يدل على علمه وله طريقة خاصة في البلاغة والرسائل تدل على اتساعه وقوته"..

أما الثعالبي فيقول[٢٣] في ابن دراج"كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام وكان يجيد ما ينظم ويقول".

ويقول ابن خلكان:"كان ابن دراج كاتب المنصور وشاعره وهو معروف في تاريخ الأندلس من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المتقدمين"[٢٤]. ويقول عنه عبدالواحد المراكشي في المعجب:"ابن دراج من فحول الشعراء الأندلسين وكنت أنا في أيام شبابي مولعا بشعره كثير القراءة له"[٢٥].

هذه جملة من الآراء النقدية التي وقفت عندها للنقاد القدماء وأغلبهم من الأندلسين وهي تكاد تتفق حول مجموعة من الخصائص والمميزات في شعر ابن دراج ومنها تصنيفهم له في مرتبة الشعراء الفحول ومماثلة بعضهم له بشاعر العربية الكبير المتنبي ثم تميزهم له بطريقة خاصة في الكتابة والبلاغة واقتداره على البديع إذا قورن بمن تقدمه من الشعراء الأندلسيين طول النفس في قصائده.

هذا ما كان من آراء النقاد القدامى ولقد نبهت هذه الآراء أذهان المحدثين من النقاد فاتجهوا إلى شعر شاعرنا فقال عنه الدكتور جودت الركابي :"وقد عرف من شعراء الدولة العامرية في قرطبة ابن دراج وكان كاتب المنصور بن أبي عامر وهو معدود من الفحول وقد شارك ابن هاني في لقب متنبي المغرب ولابن دراج رسائل وفصول في النثر لا تختلف عن الرسائل والفصول التي وضعت في العصر العباسي وله شعر أبلغ من نثره"[٢٦] ويقول أحمد هيكل:"أما شعره من الناحية الفنية فإن أول ما يلاحظ عليه أنه يبلغ الذروة من الاتجاه المحافظ الجديد وتتضح فيه معالم هذا الاتجاه بأكمل ما يكون الاتضاح وتبرز فيه ناضجة أحسن ما يكون النضج حتى يمكن أن يعتبر ابن دراج قمة هذا الاتجاه في الأندلس في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس"[٢٧].

شعـــر ابـــن دراج:

ابن دراج من أغرز الشعراء الأندلسيين شعرا، بل من أكثر شعراء العربية نتاجا فقد خلف ديوانا ضخما أكثره من القصائد الطوال التي يغلب عليها طول النفس، وموضوع المدح هو الموضوع الرئيسي الغالب على قصائد ديوان ابن دراج، ولعل غلبة المدح على هذا النحو في شعر ابن دراج كان مبعثها أن الشاعر كان تحت إلحاح ظروف معينة بدأ حياته الفنية وختمها شاعرا رسميا يعمل في خدمة الرؤساء والحكام من المنصور بن أبي

عامر، إلى مجاهد العامري، هذه الظروف هي التي دفعت الشاعر أن يكون شاعرا رسميا فبعضها يرجع إلى أحواله الخاصة وبعضها يرجع إلى أحوال عصره العامة، فمعروف أن أجداده كانوا سادة بلدة قسطلة وحكامها، أي أن الشاعر ألف العيش الرغد والحياة الناعمة ثم زال بعد ذلك سلطان قومه، ولكن ابن دراج ظل على تعلقه بحياة القصور والاتصال بالرؤساء ومن المعروف أن ابن دراج كان كثير العيال، كثير التكاليف وثقيل المسؤولية فلعل ذلك كان من دوافع إكثاره من المدح(٢٨).

وكان ابن دراج يتمتع بمكانة عالية من الشعر الجيد حتى لقب(بمتنبي المغرب) وأيضا كانوا يطلقون عليه سباق حلبة الشعراء العامريين خاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين(٢٩).

وكان الرواة يتناقلون أشعار ابن دراج في المشرق والمغرب، وقد كان لابن حزم فضل في نشر ديوان ابن دراج في المشرق عن طريق تلميذه الحميدي وإليه يرجع كذلك جانب كبير من إذاعته بالأندلس، فقد رواه عنه هنالك ابن شريح الإشبيلي وعن طريقه تناقله العلماء الأندلسيون(٣٠).

أما شعر ابن دراج من الناحية الفنية فأول ما يلاحظ عليه أنه يبلغ الذروة من الاتجاه المحافظ الجديد، وتتضح فيه معالم هذا الاتجاه بأكمل ما يكون الاتضاح وتبدو فيه ناضجة كأحسن ما يكون النضج، حتى ليمكن أن يعتبر ابن دراج قمة هذا الاتجاه في الأندلس في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري. وعلى الرغم من أن ابن دراج كان يسير في هذا الاتجاه الذي سار فيه كثيرون غيره من المشارقة والأندلسيين ولكن كانت له مميزات خاصة تجعل شعره شخصية ذات سمات واضحة بين أشعار الأخرين من أصحاب هذا الاتجاه، ويمكن أن نلخص هذه السمات في خمس وهي اللون المحلي والشعور الأسري والتحليل المعنوي والوصف النفسي والنضج الثقافي(٣١).

أما سمة اللون المحلي فنعني بها كون الشعر واضح التأثر بطابع الإقليم فشعر ابن دراج بيّن الأندلسية بشكل يدل على قارئه وسامعه على أن صاحبه من أبناء الأندلس المتأثرين بموقعها وحياتها السياسية والاجتماعية واللغوية أوضح تأثير(٣٢).

ففي شعر ابن دراج ذكر لكثير من أنحاء البلاد الإسبانية التي اتصل بها المسلمون خلال معاركهم مع المسيحيين ومن ذلك قوله :

وبسطت من قشلة يد آمن لِرضاك فيها يارق وسوار(٣٣)

وقوله أيضا :

وقلنية أنشأت فيها عارضاً للحرب أبرق بالحتوف وأرعدا(٣٤)

وفي شعر ابن دراج إيراد لكثير من أسماء الملوك والأمراء الإسبان الذين كانوا على احتكاك بالدولة الإسلامية في الأندلس بالحرب والمهادنة ومن ذلك قوله :

وفرذلند رددت الملك في يده ومارجا غير رد الروح في جسده(٣٥)

وفي شعر ابن دراج استعمال لألفاظ أندلسية خاصة، بعضها مشرب من هذه اللهجة اللاتينية المحلية المسماة (رومانثي) ومن أمثلة ذلك قوله :

وانصب مجانيقا من التيم التي أحجارهن من الرواطم والنخب[٣٦]

فكلمة(تيم) في الشطر الأول جمع تيمة وهي القينة أو الزجاجة في استعمال الأندلسيين خاصة، وكلمه الرواطم في الشطر الثاني جمع رطومة وتنطق أيضا رضومه وهي القنينة كذلك[٣٧].

وفي شعر ابن دراج تأثر واضح بالموقع الجغرافي للأندلس كشبه جزيرة تحيط بها المياه من أكثر الجهات وتستخدم السفن وسيلة من وسائل المواصلات ومن هنا كثر وصف ابن دراج للبحر والسفن والرحلة المائية، كما كثر في شعره الوصف والتشبيهات المستمدة من البحر

كقوله في بعض ممدوحيه:

وخضت وقد أعيت نجاة غريقها وهالت بأمواج المنايا بحورها[٣٨]

وديوان ابن دراج يعد سجلا لأهم المعارك التي دارت بين المسلمين ومسيحي الشمال في عهده، كما أنه سجل لكثير من العلاقات بين الرؤساء الأندلسيين ومجاوريهم من الملوك والأمراء والمسيحيين.

ابـــرز الاحـــداث في حيـــاة ابـــن دراج:

فمن المعروف أن الفترة الزمنية الأولى لحياة ابن دراج لم تكن واضحة المعالم، لأن المصادر التي تطرقت لذكر ابن دراج لم تذكر شيئا عن حياته الأولى . أما المدخل الرئيسي الذي نستطيع أن نلج منه إلى حياة ابن دراج هو صلته بالمنصور محمد بن أبي عامر، ففي بلاط المنصور بن أبي عامر لمع نجم الشاعر وعلا شأنه وأصبح من كبار شعراء المنصور وأبرز كتابه، وكذلك حظي بمكانة رفيعة لدى ابن المنصور عبد الملك الملقب بالمظفر . غير أن الدهر لم يصف للشاعر فسرعان ما تعرضت الأندلس لفترة الفتنة بعد شهرين فقط من تولي عبد الرحمن ابن المنصور الحجابة خلفا لأخيه عبد الملك المظفر، حيث قامت الثورة في قرطبة ضد الحاجب عبد الرحمن لأنه حاول أخذ البيعة له ليكون خليفة،ففجر بذلك غضب الأمويين وأفراد الشعب الذي كان ناقما عليه، لاندفاعه وسوء تدبيره[٣٩].

ولقد أفاضت المصادر في وصف الفتنة وآثارها على الشعب عامة والأدباء بصورة خاصة، الذين اضطربت أحوالهم باضطراب الأوضاع وتخلخل القيم والموازين، "وبقدر تخبط السياسة والشعب في غمرات تلك الفتنة الجامحة كان تخبط الأدباء والشعراء، فهم لا يدرون إلى من يقبلون وعمن يدبرون، يحيون حياتهم يوما بيوم دون أن يعرفوا ماذا يكون من أمر غدهم، ولا أي كارثة تتربص بهم الدوائر "[٤٠]، وتبعا لهذا التخبط وعدم الاستقرار" تخلف الشعر الأندلسي بعض التخلف، فقل نتاجه وضاقت أغراضه، واختلطت اتجاهاته، ولولا قلة من الشعراء الموهوبين الذين تغلبت طبيعتهم الفنية على ظروف الفتنة القاسية، لما وجدنا لهذه الفترة شعرة ذا قيمة كبيرة، لأن أحداث الفتنة حصرت الشعر في دائرة ضيقة وصرفت الشعراء عن الفن الجاد "[٤١].

وكان ابن دراج القسطلي من أبرز هؤلاء الشعراء القلة الموهوبين، إذ تمكن من فرض كلمته الشعرية في هذا الجو المشحون بالتوتر والقلق والخوف، بل ربما جاء أفضل شعره ما نظمه في هذه الفترة . فقد عانى ابن دراج من ويلات الفتنة واحتسي همومها ومآسيها، فلم يكن أمامه سوى التقرب من ذوي السلطان والنفوذ رغبة في الأمن والحماية، وطلبا للعون والمساعدة .

ولا ضاقت به الحال في قرطبة ولم ينل مأربه بدأ مرحلة(الأرتحال والتنقل والضياع) حيث تنقل في مشارق الأرض ومغاربها مصطحب معه مدائحه الشعرية كوسيلة للوصول إلى بلاط الحكام والأمراء وكسب مودتهم ورضاهم، بيد أن هذه المدائح كانت – أحيانا – تخيب ظن الشاعر وتطفئ جذوة أمله كما حدث مع أمراء شرقي الأندلس، وكذلك مع أمير سبتة في المغرب في رحلته المنفردة خارج حدود الأندلس[٤٢]، وأحيانا أخرى كانت هذه المدائح تشفي غليله وتروي غلته، وتحقق ما كان يأمله من تقدير ورعاية وأمن واستقرار، وهذا ما حظي به في بلاط التجيبيين حكام سرقسطة مما شجعه على طول البقاء والمكث عندهم[٤٣].

ويبدو أن القدر الحد يترصد للشاعر من جديد، فيترك ابن دراج سرقسطة بعد أن قضى في بلاط التجيبيين نحو عشر سنوات تيم فيها بالهدوء والطمأنينة،" ولابد أن شيئا خطيرا هو الذي دفع ابن دراج إلى هذه المرحلة .. ونحن لا نستبعد أن تكون العلاقات قد ساءت بينه وبين يحيى بن المنذر التجيبي إلى حد أنه خافه على حياته، فقرر الهجرة من سرقسطة "[٤٤] متوجها إلى دانية شرقي الأندلس حيث أميرها مجاهد العامري الذي عرف بتقديره للعلماء والأدباء، وأغلب الظن أن هذه المرحلة كانت بمثابة المحطة الأخيرة في حياة ابن دراج، فقد وافاه الأجل بعد سنتين من إقامته في مدينة دانية عام ٦٢١ هـ.

هذه أهم الأحداث التي شكلت حياة ابن دراج، فتردد صداها في آفاقه الشعرية، وإذا كان صوت مدائحه هو الأعلى، فإن صوت عاطفته نحو أسرته هو الأصدق .

المبحث الثاني

روح الانتماء الاسري عند ابن دراج القسطلي

إن ابن دراج يضع الموقف الأسري نصب عينيه، إذ نجده متجسدة بوضوح خلال الكثير من قصائده الشعرية . فالشاعر لا يلبث حين يصف معاناته ويذكر تكالب الكوارث والمحن عليه أن ينعطف بمساره الشعري نحو أسرته، فهي القاعدة والركيزة التي يتكئ عليها – غالبا– في تعبيره عن اضطراب أحواله وسوء معيشته، وعظم المسئولية التي تقع على كاهله، والضغوط التي تحاصره، والعوائق التي تواجهه، والصدمات التي تلطمه، وتتضافر تلك العوامل فيما بينها لتشكل إطار التجربة الشعرية لدى ابن دراج، فنجد الإحساس العميق اتجاه ممن يعول، وخوفه الشديد عليهم من الضياع والتشرد، وقلقه الدائم من المصير والمستقبل[٤٥].

ان الرؤية الفكرية في الموقف الأسري عند ابن دراج – في مواقفه الأسرية – يطل علينا من خلال رؤي فكرية تتمحور – في مجملها – حول موضوعات ثلاثة :

(١) الشكوى ووصف الحال (٢) وصف مشهد الوداع (٣) وصف الرحلة.

ولنبدأ انطلاقتنا مع الرؤية الفكرية الأولى :

١- الشكوى ووصف الحال :

لقد أشرنا – فيما سبق– إلى حادثة الفتنة وآثارها التي توغلت وتشعبت إلى كل النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية، فتشكل –نتيجة لهذه الأوضاع السائدة– نفوس قلقة، يائسة يسكنها الشك والقلق نحو الحاضر والمستقبل الغامض المجهول، خاصة هؤلاء الأفراد الذين يعيشون تحت وطأة الفقر والعوز، فضلا عن واجب المسئولية الذي يطوق أعناقهم ويثقل كاهلهم فتصبح المعاناة أشد وطئة، والحاجة أكثر إلحاحا من هذه البؤرة الضيقة، ومن زاوية الحرمان والذل والمهانة يتسلل الشاعر ابن دراج إلى سامعيه باسطا شكواه وواصفا حال أسرته[٤٦] .

وحاجتهم الملحة لما يعينهم على مواجهة تقلبات الزمن، والتكيف مع مواقف الحياة وتغيراتها، فإن ابن دراج يضطر – مرارا– إلى أن ينعطف في شعره نحو أسرته أو أبنائه يصف حالهم ويكشف الستر عن ظروف معيشتهم، مجسدا خلال ذلك مأساته ومأساتهم، ومعبرة عن احتياجهم الشديد إليه وتعلقهم به .

فمن قصيدة نظمها في مدح المنصور منذر بن يحيى نجتزئ هذه الأبيات التي تنقل جانبا من تلك المعاناة[٤٧] .

وتحت جناحي مقدمي وتعطفي ثمان وعالت بالبنين إلى الشطر
أخذت لهم إصر الحياة فأجّلوا وقد أخذ الإشفاق مني لهم إصري
فحملتهم وزرا ولو خف منهم جناحي، لكان الطود أيسر من وزري
فلله من أعداد أنجم يوسف تحملها منها أقل من العشر[٤٨]

ثم يصف علاقته الحميمة بأبنائه ويقيم أمام المتلقي دعائمها ويفصح عن وشائجها المتينة :

فإن نبت الأوطان من بعد عنهم فلا محجري حجر عليهم ولا حجري
وإن ضاق رحب الأرض عن منتواهم فرحب لهم ما بين سحري إلى نحري
وإن تقس أكباد كرام عليهم فواكبدي ممن تذوب له صخري
وإن تبرم الأيسار في أزماتهم فأحبب بأيسار قمرت لهم يسري
ففازوا بنفسي غير جزءٍ ذخرته لما شف من خطب وما مس من ضر[٤٩]

ان هذا التكرار لعدد افراد اسرته ، وذلك الإلحاح المتواصل على الإعلان عن ذلك العدد إنما قصد به الشاعر إبراز حجم المسئولية وعظمها، والتأكيد على ثقل العبء الملقي على كاهله، بل هو يصرح ويعلن عن هذا الحمل الثقيل الذي أنقض ظهره:

فما جهدوا فلكأ كما جهدوا يدي ولا انقضوا رحلا كما انقضوا ظهري[٤]

وتتضاعف المسئولية، ويتضخم الشعور بها حين يكون هناك دافع قوي يشحذها ويوقد جذوتها، فيشتعل ضرام نارها بين الضلوع والجوانح، وقد كان دافع الحب والمودة فتيلا متوهجة في أعماق الشاعر، نلحظ ومضاته متألقة بين الحين والآخر في الأبيات السابقة، فقد جسد ابن دراج تعلقه الشديد بأفراد أسرته، بل هو لا يتورع من أن يصرح بأنه فرط في كرامته وعزة نفسه من أجلهم، حين أراق ماء وجهه متذللا طالبا العون والمساعدة:

وأني لهم في ماء وجهي تاجر أغنمهم غنمي وأربهم خسري

وخزيا لوجه هان في صوْن أوجهٍ كريم بهم ربحي لئيمٍ بهم تجري

ولولاهم لم أبد صفحة معدمٍ ولم أسمع الأعداء دعوة مضطر[٥٠]

فابن دراج –كما لاحظنا في المقطوعة السابقة– ينطلق من تجربة ذاتية، واستمر في انطلاقته مفصلا ومستغرقاً، ليس من جانب مادي سطحي مباشر، بل سلك الجانب النفسي وتعمق فيه، متلمسة جذوره، ومستفزا نبضاته، ومستشعراً نوازعه وخلجاته، وهذه سمة تميز بها ابن دراج في معظم قصائده، فهو يميل "إلى تحليل المعنى وبسط الفكرة، وتوسيع جوانب الصورة .. فهو لا يجمل ولا يركز، ولا يكتفي باللمسة السريعة واللمحة العابرة، وإنما يفصل ويحلل ويبسط ويوسع، ويستطرد ويستوعب .. "[٥١]، ولكن هذه الصفة التي كان الشاعر ابن دراج يوليها اهتماماً كبيراً في شعره تخرج به أحياناً إلى حد الإملال كما يرى د. إحسان عباس[٥٢]، وكذلك د. أحمد هيكل الذي لم يطلق هذا الرأي على علاته بل قيده بقوله :" وكثيرا ما كانت تورط هذه السمة في الإملال أو التعسف أو الإطالة أو اهتزاز الصورة .. على أن ابن دراج في أكثر الأحيان موفق في هذا التحليل مقارب للكمال فيه، وذلك يتأتى له عادة حين يصدر عن عاطفة صادقة وتجربة حية "[٥٣]، ولعل هذا الرأي – فيما يعتقد– مقارب للصواب، إذ إن ابن دراج – كما ذكرنا– أصدق ما يكون في شعره حين يتطرق إلى أسرته وأبنائه، ولعل استغراقه في التفصيل والتحليل حين يتحدث عنهم ناتج من أن الشاعر يتخذ من أسرته عنصرا قويا يستند عليه في إفراغ شيء من همومه، وتخفيف جانب من وطأة الضغوط والالتزامات التي تراكمت عليه، فهو باستدعائه لأسرته يعيش لحظات من اللاوعي في جو من الألفة والمودة والاستقرار، بالرغم من أن هذا الاستدعاء يثير – في الوقت ذاته– همومه وأحزانه، فيصبح شاعرنا كالمستجير من الرمضاء بالنار. فهو لا ينفك باحثاً

في المقطوعة السابقة يحاول ابن دراج أن يتخلص من ربقة الهموم والآلام، لذا نراه يغلق دائرة المعاناة بذكر الممدوح الذي أصبح يمثل لديه – في معظم شعره – بارقة الأمل التي تشرق في حياته فتبدد غياهب همومه[٥٤] وهاهو ينعطف مرة أخرى نحو المسئولية الأسرية التي بلور حجمها منذ بدء حديثه عنها :

أخو ظمأ حشتاه سبعٌ وأربعة وكلهم ظماء

كأنجم يوسف عدد، ولكن برؤيا هذه بـرح الخفـاء
خطـوب خاطبتهم من دواه يموت الحزم فيها والدهاء
تراءت بالكواكب وهي ظهر وآذن فيـه بالشمس العشـاء[٥٥]

إن ابن دراج يخلق وشيجة قربى تصله بالظمأ، فيستخدم التركيب الإضافي(أخو ظمأ) وسيلة للتعبير عما يكابده من شظف العيش وسوء الحال، فلا أشد على النفس من الظمأ، ولو دققنا النظر في هذه الدلالة الفعلية ذات السمة المادية التي وظفها الشاعر في هذا النسق(يمصّ) كي تلمس إيحاءاتها المعنوية التي أومأ إليها الشاعر، وأهمها اللهفة لإشباع الرغبة وإطفاء جذوتها، وتلك تنبثق عن الإحساس بندرة الشيء وقلته، والإلحاح الشديد لاستدراره، والاستدرار هنا لا يعني ما يتصل بالشيء المادي فقط وإنما استدرار الحنان والرأفة والطمأنينة، ناهيك عن معنى الاستمرارية والتكرار الذي تنطوي عليه صيغة المضارعة لهذه الدلالة الفعلية[٥٦]، ولكي يبدو هذا المعني أكثر وضوحا وأعمق أثرة نرى ابن دراج يلجأ إلى قصة النبي يوسف عليه السلام – يجتزئ منها أحداثا رئيسية محاولا أن يشابه بها معاناة أبنائه، فهي اتكاءة استند عليها الشاعر قاصدة الترويح عن نفسه، والتخفيف من همومها وأحزانها، وهذه عادة ابن دراج في كثير من نظمه، إذ اتخذ من الأحداث الدينية والقصص النبوي منه ثراً يغرف منه ليروي أفكاره ومعانيه، فتنمو وتزدهر في ذهن المتلقي[٥٧] .

هذا هو حال ابن دراج مع أسرته بعد أن قلب له الزمن ظهره، وأدار عنه صفحة وجهه، فاصطدم بجداره، وتعثرت خطواته في دروبه ومسالكه، فتحولت حياته إلى صراع مرير مع شروره وغوائله، ومادام الحال كذلك فليس أمام شاعرنا سوى التغرب والرحيل والضرب في مناكب الأرض بحثا عن معيشة هانئة وحياة آمنة مستقرة، لذا تطالعنا في ديوانه مشاهد توديعه لأسرته حين يقرر الرحيل والسعي في طلب الرزق[٥٨] .

٢- مشاهد الوداع :

غلب على مشاهد الوداع التي عرضها ابن دراج مشهد توديعه لزوجته، ومحاولته تهدئتها وإقناعها بالرضا والتحلي بالصبر، موضحا – في الوقت ذاته– تعلقه بها واهتمامه بشأنها، فهي سكنه ومأمنه، "والمرأة دائمة هي رمز الاستقرار، فهي الأم الحنون والزوجة الوفية والابنة المشفقة وهي بؤرة لكل المشاعر المرهفة والمتدفقة التي يأنس بها الرجل يحب إشفاقها وخوفها عليه، يهدئ من روعها وجزعها في رفق وحنان "[٣]. فمن قصيدة مشهورة لابن دراج، امتدح فيها المنصور بن أبي عامر، نعرض مشهد توديعه لزوجته ومحاولته مواساتها وإقناعها بضرورة السفر:

دعـي عزماتِ المستضام تسيـر فتسنجد في عرض الفلا وتغور
لعلَّ بما أشجاك من لوعة النوى يعـز ذليـلٌ أو يفـكُّ أسيـر
ألم تعلمـي أن الثواء هـو التـوى وأن بيـوت العاجـزين قبـور
ولم تزجري طير السرى بحروفها فتنبئك إن يمـن فهـي سـرور

تخوفني طول السفار وإنه لتقبيل كفَّ العامريّ سفير
دعيني أرد ماء، المفاوز آجناً إلى حيث ماء المكرمات نمير
وأختلس الأيام خلسة فاتكٍ إلى حيث لي من غدرهن خفير
فإن خطيرات المهالك ضمن لراكبها أن الجزاء خطير[٥٩]

يعلق أحد الباحثين بأن حديث الزوجة في الأبيات السابقة قد يعكس حديث نفس الشاعر "فنحن لا نلمح فرقاً بين زوجته التي تتداخل مع ذاته وبين نفسه، فحديث الزوجة هو حديث النفس في جانبها الضعيف المتردد الذي يحذر المجهول، والذي لا يستطيع أن يواجهه إلا بمحاولة عزل نفسه عنه .. فقوله: ألم تعلمي، ولم تزجري، تخوفني، دعيني، كل هذا يصلح أن يكون خطابا للنفس التي تداخلت مع الزوجة واتحدت بها "[٦٠]، ونعتقد أن هذه الرؤية قد لامست الحقيقة، فإذا كان المشهد العام لهذه المقدمة يكشف عن حوار خارجي بين الشاعر وزوجته، فإنه يكشف أيضا عن حوار ذاتي بين الشاعر ونفسه، فينزع بذلك القناع عن تلك الرغبات المتضاربة والمشاعر المتنازعة لدى رب الأسرة وعائلها، ما بين رغبة الزوجة وإلحاحها، وتعلق ذاته بالأسرة وإحساسه العميق بالمسئولية اتجاهها، وبين التطلع نحو ما عقد العزم عليه حيث لقاء المنصور والاستئناس بكرمه والتنعم بعطائه، ففي بقائه الموت والهلاك. ولعلنا نصغي – في إطار هذا الحوار الذاتي– إلى ذلك الصراع الداخلي حيث التردد بين التخوف والحذر من مغبة الرحيل وغموضه، وبين إثبات الذات وإقناعها بالقدرة على المواجهة، والتغلب على المصاعب في سبيل تحقيق الغايات والأهداف[٦١] .

ونلاحظ في مشهد آخر من مشاهد الوداع والفراق، يخاطب زوجته محاولا انتزاع موافقتها على الرحيل، في حين يجاهد نفسه ويحيطها بسياج من الصبر، ولكن مشاعر الشوق أقوى وأشد اندفاعا فلا يلبث الشاعر أن يكشف عنها[٦٢] :

أجاهد الصبر عنها وهي غافلة عن لوعة في الحشا منها تناجيني
يا هذه كيف أعطي الشوق طاعته وهذه طاعة المنصور تدعوني؟
شدّي علي نجاد السيف أجعله ضجيع جنبٍ نبا عن مضجع الهون
رضيت منها وشيك الشوق لي عوضاً وقلت فيها وعات الأسى : بيني
فإن تشج تباريح الهوى كبدي فقد تعرضت قرباً منك يأسوني
وإن يمت موقف التوديع مصطبري فأحر لي بدنوّ منك يحييني[٦٣]

هكذا يصرح ابن دراج عن احتدام الصراع بداخله، وتضارب الانفعالات وتنازعها بين ضلوعه، إذ يتوسل بتلك الدلالة الفعلية(أجاهد)، فالشاعر يجاهد نفسه ويغالب الشوق ولوعته التي تحاصره وتغريه بالبقاء، ولكن رغم الشوق العارم الذي يكشف عن العلاقة الوثيقة بين الشاعر وزوجته، فإن هناك – في الجانب الآخر– صوتا أعلى ونداءً أقوى على الشاعر أن يلبيه ويستجيب له، وهو طاعة المنصور والانصياع لأوامره دون تردد.

وإذا كان توسل الزوجة ومحاولتها إقناع زوجها بعد الرحيل لم يجد ولم يثن الزوج عما عزم عليه، ولم يستجب لإغراءات الشوق ونداءات الحنين، فإن اللجوء إلى أسلوب الشكوى في مثل هذا الموقف – ربما يثير رأفة الزوج ويستدر عطفه وشفقته.

ويبدو أن ابن دراج ليس بإمكانه إخفاء ذلك الرباط المتين الذي يصله بأسرته، لذلك نجده يعبر عنه في مواضع كثيرة بصياغات مختلفة تقوي من أواصره وتؤكد معناه" يرمي حشاشة شملنا المتقارب " فهو وإن كان يطلق ذلك القول على لسان زوجته، فإنه يعتبر – من باب أولى – عن سرائر نفسه وخواطرها، فالشكوى التي أطلقها ابن دراج على لسان زوجته – وما احتوت عليه من معاني اللوم والعتاب والتذمر من سياط التفرق وملاحقتها لهم حتى في منزل الغربة، والتبرم من تقلبات الأيام وصروفها – جاءت مرآة عاكسة لانفعالاته النفسية ومشاعره الصاخبة والمتزاحمة بين الشعور بالتشرد والتشتت والحاجة الملحة إلى الاستقرار والطمأنينة والأمن، وبين الشعور بعتاب النفس ولومها وتأنيبها على التقصير نحو الزوجة والأبناء، زد على ذلك إحساسه بضرورة الرحيل والتغرب لكسب الرزق وتحقيق معيشة أفضل لأسرته"[٦٤] .

ابن دراج يوحد بين مشاعره الذاتية ومشاعر أسرته، وهذا التوحد والتمازج بين الذات الأسرية، أمر فطري تمكن من وجدانه واحتل كل زواياه وأركانه، ويأتي معول النوى أو الفراق ليصدع تلك الأركان ويقتلع أوتادها، وإذا ما لوحت في أفق الوداع بشائر ضم الشمل عادت رياح الفراق تعصف بهذا الجمع، ولكن أنى لها أن تزلزل طود ذلك التوحد أو تقتلع جذوره، فهاهي المشاعر الدالة عليه تتضافر وتبدو واضحة جلية أمام المتلقي

٣- ***وصف الرحلة :***

قبل البدء في مناقشة أبعاد تلك الرؤية، نشير إلى أن موضوع الرحلة من الموضوعات القديمة التي أكثر الشعراء القدامى من تناولها والدوران حولها، خاصة في التمهيد لموضوع المديح، إذ يرمى الشاعر إلى تعريف الممدوح بما تحمله من المتاعب وما تجشمه من المصاعب في رحلته بغية الوصول إليه والمثول بين يديه، وحين تناول ابن دراج هذا الموضوع اراد الحفاظ على روح القصيدة القديمة اهتم بتجسيد العنصر العاطفي الموحد بينه وبين أسرته، والمتمثل تحت وطأة الإحساس بالقلق والتوتر والتشرد والضياع" والتعبير عن تجربة ذاتية نلمح من خلالها نوعا من التفرد "[٦٥]، خاصة في وصفه لتلك الرحلات التي اصطحب فيها أسرته، إذ يتناول حيثيات الموقف ليس من زاوية تقليدية قديمة بقدر ما يتوقف عند تصوير الجوانب النفسية واعتنائه بإظهارها وتحديد أبعادها، وتسخيره للحواس أثناء الوصف والتصوير لتجسم المعاناة التي يواجهها مع أسرته خلال رحلتهم، وهو في معظم مدائحه يسلك هذا المنحى ويتخذه معادلاً لموضوع المدح، ويستمد منه الدعائم الأساسية التي يعتمد عليها في مواصلة بنائه لمعاني المديح وأفكاره،" إنها رحلة ليست ككل الرحلات إنها العذاب الدائم المتجدد، الرحلة المخيفة التي تحدق بها الأخطار وتكتنفها الصعوبات من كل الجهات برا وبحرا"[٦٦]. فمن

قصيدة نظمها في مدح خيران العامري صاحب (المرية) قال يصف معاناته مع أفراد أسرته في رحلته البحرية التي قطعها مع الممدوح:

إليك شحنا الفلك تهوى كأنها – وقد دعرت عن مغرب الشمس– غربان
على لجج خضر إذا هبت الصبا ترامى بنا فيها ثبير وثهلان
موائل ترعى في ذراها مواثلاً كماعبدت في الجاهلية أوثان
وفي طيَّ أسمال الغريب غرائبٌ سكن شغاف القلب شيبٌ وولدان
يرددن في الأحشاء حزَّ مصائبٍ تزيد ظلاماً ليلها وهي نيران
إذا غيض ماء البحر منها مددنه بدمع عيون تمتريهن أشجان
وإن سكنت عنا الرياح جرى بنا زفيرٌ إلى ذكر الأحبة حنّان
يقلن – وموج البحر والهم والدجى تموج بنا فيها عيون وآذان
ألا هل إلى الدنيا معا وهل لنا سوى البحر قبر أو سيوى الماء أكفان؟
وهبنا رأينا معلم الأرض، هل لنا من الأرض مأوي أو من الإنس عرفان[٦٧]

وإذا كان الشاعر قد اعتنى في بداية حديثه عن الرحلة بتشكيل الصور الفنية في وصفه الفلك، فهو قد وجه جل اهتمامه لنقل مأساة أبنائه وتجربتهم المريرة في هذه الرحلة، فلامس وأذكى المشاعر، وهذه المأساة التي جسدها الشاعر إنما هي وليدة معاناته النفسية، إذ ينطلق من إشاراته لتجربة ذاتية وشعور داخلي مهيمن، تكاشفنا به تلك التراكيب والدلالات التي تول بها(وفي طي أسمال الغريب غرائب) (كن شغاف القلب شيب وولدان)، فمعاناة الشاعر وأبنائه تتمحور حول معاني البؤس والفقر والتشرد وكثرة الترحال، أضف إلى ذلك تلك المسئولية الكبرى نحو هؤلاء الصغار واهتمام الأب باحتوائهم ورعايتهم[٦٨]، انطلاقا من تعلقه بهم، فغدا شغاف قلبه سكنا ومأوى لهم، ومما يفيد ذلك المعنى ويزيد من قوته أن الشاعر يؤسس دلالاته ويبنيها في نسق أسلوبي يقدم فيه جملة الجار والمجرور على بعض الوظائف النحوية مثل :"إليك شحنا الفلك، على أجج حضر، ترامى بنا فيها ثبير وثهلان، ترعى في ذراها موث، وفي طي أسمال الغريب غرائب، يرددن في الأحشاء كثر مصائب، ألا هل إلى الدنيا معا، هل لنا من الأرض مأوي أو من الإنس عرفان "[٦٩] . وتحت ظلال هذه المعاناة الذاتية تكمن معاناة عميقة الجذور شائكة الفروع، يرويها ابن دراج ويلونها بأحاسيسه، لأنها تضرب بجذورها في أعماق فؤاده وتمتد فروعها في شرايينه، فلا يملك إلا أن يعبر عنها بعاطفة صادقة وشعور حي نابض بالحرارة، فهو(غريب) وهم(غرائب) أي غرباء، تهوي بهم الفلك في لجج البحر، ويطبق عليهم الموجب والهم والدجى، وإزاء هذا الحصار البغيض تتعاظم المصائب لتصبح نيرانا تتلظى في الأحشاء والأفئدة، فيصبح ليلهم أكثر ظلاما، لأنها نيران هم وغم، ووحشة وكآبة، ولا يطفئها أو يخفف من لظاها وسعيرها سوى تلك الأنات والزفرات والعبرات المتدفقة، وقد وفق الشاعر – في اعتقادي– في تصويره لذلك المعنى، حين اعتمد عنصر الطرافة والمبالغة

فساوى بين ماء البحر ودموع أبنائه، وبين هبوب الرياح وصريرها بالزفير، وتحت وطأة هذا الكم الهائل من صور العذاب يفجر ابن دراج تلك التساؤلات على لسان أبنائه، فيثير – من خلالها– معاني الشك والقلق والحيرة والخوف من المجهول، ويضاعف من حجم الأساة ليس لديه ولدى أبنائه فقط وإنما لدى المتلقي الذي تمكن الشاعر من أن يستأثر بحواسه ويستحوذ على مشاعره ليصبح طرفا ثالثا في هذه الرحلة(٧٠).

ويبدو أن الشاعر – في الأبيات السابقة – أراد أن يؤكد على معنى الضعف والعجز وقلة الحيلة لدى أبنائه، لذلك نجده قد استعان ببعض الدلالات التي تجسد ذلك المعنى مثل :(غرائب، سكن، يرددن، مددنه، يقلن) فاستخدام صيغة التأنيث ونون النسوة يوحي بهذا المعنى، لذلك لجأ الشاعر إليها، وربما أراد الشاعر بتلك الصيغة بناته السبع لأن النساء لا طاقة لهن بعناء السفر ووعثائه .

الخاتمة والنتائج:

الحمدلله رب العالمين القائل في محكم كتابه"خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ " والصلاة والسلام على من ختمت به الرسالات وعلى آله وصحبه اجمعين.

وبعـد:

فنحمد الله ان يسر لنا انجاز هذا البحث بخاتمه المتواضعة هذه لتكون مسكاً يحسه كل باحث في الشعر الاندلسي .

لقد حاول هذا البحث أن يستنطقروح الانتماء الاسري في شعر ابن دراج، وحياته من خلال الدراسة الموضوعية والفنية، وتعد هذه الظاهرة من الظواهر الاجتماعية التي لا يمكن أن نغفل عنها، ولاسيما إذا وجدت عند شاعر فحل طالما قورن بشعراء فحول كالمتنبي وغيره ؛ ولهذا عمدت إلى إبراز أهم المؤثرات والعوامل التي جعلت من ابن دراج شاعراً اسرياً كبيرًا. وقد أسفرت هذه الدراسة عن جملة من النتائج تتلخص فيما يأتي:

١. لوحظ ان الاغتراب في حياة الشاعر كان لها الاثر الواضح في اظهار هذه الصورة الفنية في شعره.

٢. شكلت الاحداث البارزة والتطلعات على شعر القداماء مصدرا ثقافياً وبعداً ايجابياً في تكوين تجربة القسطلي، ورفدها بالدلالات الإيحائية الخصبة.

٣. كان لمحاكاة ابن دراج لعاطفته الاسرية اثرٌ في اغناء تجربته الشعرية بشكل خاص والشعر الاندلسي بشكله العام .

٤. تماسك النص الشعري لدى الشاعر واستعمال الاساليب البلاغية كان لها اثر واضح من جعل هذه النصوص لوحة فنية غنية بالإمكانيات والطاقة التعبيرية.

٥. عبر الشاعر عن همومه وقلقه وألمه، ومدى إحساسه باليأس والذل والضياع فخرجت تلك المشاعر وذلك الانفعال النفسي من قوقعة الكتمان لما يختزنه في قلبه من الآم فاض الكيل ؛ فخرجت لتوضح لنا عمق اغترابه متمثلة في قصائد شعرية تثير الشجن والألم، ولاسيما أن الشاعر لم يكتفِ بتصوير همومه واغترابه فقط، بل كان

إحساسه أعمق من ذلك بكثير ؛ إذْ عمد إلى وصف اغتراب أبنائه وهمومهم ومعاناتهم، ولعلَّ هذا الوصف أو الإحساس الأسري من أهم ما تميز به ابن دراج عن غيره من شعراء عصر الطوائف .

٦. اهتمام الشاعر بالجانب الموسيقي، الذي عكس بدوره – أيضا – جانبا من جوانب معاناة الشاعر وهمومه مع إعطاء إيقاع صوتي حزين يكشف عن حالة الحزن والألم.

فسلام من الله عليكم ورحمته تعالى وبركاته

هوامش البحث:

١ –ديوان ابن دراج لقسطلي:٧

[٢]– نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب، احمد بن محمد المقري:٢٥٤

[٣]– سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن احمد بن، عثمان الذهبي: ١٣٥

ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، احمد بن محمد بن خلكان : ٣٦٥ –

[٤]– ينظر: الروض المعطار:٤٩٧–٤٨٠

[٥]– اللباب، ابو ابقاء العكيري: ٢٤٩

[٦]– ينظر: جمهرة انساب العرب:٥٠١–٥٠٢

[٧]– ينظر:جمهرة انساب العرب :٥٠٢

[٨]– ينظر: نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب:٤

[٩]– ديوان ابن دراج:٨

[١٠]– المصدر نفسه:١٨

١١–ينظر:البيان المغرب في اخبار الاندلس، احمد بن محمد:٥٠

[١٢]–ينظر:جذوة المقتبس في ذكر ولادة الاندلس،محمد بن عبد الله:٢٢

[١٣]– ينظر: البيان المغرب:٩١

[14] –ينظر: المصدر نفسه:١٨٠

[١٥]–الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة:٦٠–٦١

[١٦]–عامريات ابن دراج:٣٨

[١٧]–ديوان ابن دراج:١٠٥

[١٨]– المصدر نفسه:١٠٥

[١٩]– عامريات ابن دراج:٣٨

[٢٠]–ينظر: وفيات الاعيان:١٣٨

[٢١]– ديوان ابن شهيد:٤٨

[٢٢]– جذوة المقتبس:٧٩

٢٣– يتيمة الدهر:١٠٤

٢٤– وفيات الاعيان:٢٩٣

[٢٥]– المعجب في تلخيص اخبار المغرب:٨٢

[٢٦]– في الادب الاندلسي:٦

[٢٧]–الادب الاندلسي من الفتح حتى السقوط:١٨٠

[٢٨]–فن المديح عند ابن دراج القسطلي :٥١

[٢٩]– الذخيرة في محاسن اهل الحيرة:٤٤٢

[٣٠]–يتيمة الدهر:١٠٣

[٣١]– فن المديح في شعر ابن دراج القسطلي: ٥١

[٣٢]–الادب الاندلسي : ٣٢١–٣٢٥.

[٣٣]– ديوان ابن دراج: ١٥٥

[٣٤]– المصدر نفسه:٤٥٥

[٣٥]– المصدر نفسه:١٥٠

[٣٦]– المصدر نفسه :٤١٤

[٣٧]– فن المديح عند ابن دراج:٥٣

[٣٨]– المصدر السابق :٢٢

[٣٩]– ينظر: العاطفة الاسرية عند ابن دراج القسطلي:٣

[٤٠]– مقدمة ديوان ابن دراج القسطلي:٦٣

[٤١]– الادب الاندلسي:٣٦٤

[٤٢]– ينظر: جذوة المقتبس:٢٧٠

[٤٣]– ينظر: الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة:٦١

[٤٤]– مقدمة ديوان ابن دراج القسطلي:٧٨

[٤٥]– ينظر: العاطفة الاسرية عند ابن دراج القسطلي:١١٢

[٤٦]–ينظر: المصدر نفسه:١١٤

[٤٧]– ينظر: المصدر نفسه:١١٥–

[٤٨]– ديوان ابن دراج القسطلي:٢٥٦

[٤٩]– المصدر نفسه:٢٥٧

[٥٠]– المصدر نفسه:٢٦٠

[٥١]– الادب الاندلسي:٣٢٦

[٥٢]– ينظر: تاريخ الادب الاندلسي: ٢٦٢

[٥٣]– الادب الاندلسي: ٣٢٧

[٥٤]– ينظر: العاطفة الاسرية عند ابن دراج: ١١٨

[٥٥]– ديوان ابن دراج القسطلي:٣٢٧

[٥٦]– ينظر: المصدر السابق:١١٨

[٥٧]– المصدر السابق:١١٩

[٥٨]– المصدر نفسه: ١٢٠

[٥٩]– ديوان ابن دراج: ٧٤

[٦٠]–ينظر: الصورة الفنية في شعر ابن دراج القسطلي :٣٠٢

[٦١]– ينظر: العاطفة الاسرية عند ابن دراج القسطلي:١١٢

[٦٢]–ينظر: المصدر نفسه : ١٢٥.

[٦٣]– ديوان ابن دراج: ٥٣٦–٥٣٧

[٦٤]– المصدر السابق: ١٢٧

[٦٥]–الصورة الفنية في شعر ابن دراج القسطلي : ٣١٣.

[٦٦]–الغربة والحنين في الشعر الاندلسي:٩٧.

[٦٧]–ديوان ابن دراج: ٨٨

[٦٨]–ينظر: العاطفة الاسرية عند ابن دراج القسطلي : ١٣٠

[٦٩]– المصدر نفسه: ١٣١

[٧٠]– ينظر :المصدر السابق:١٣١

المصادر والمراجع

١. العاطفة الاسرية عند ابن دراج القسطلي ،د.عائشة الدرهم ، مجلة مركز الوثائق والدراسات الانسانية ، جامعة قطر، العدد الخامس عشر ،٢٠٠٣م

٢. الادب الاندلسي من الفتح حتى السقوط، أحمد هيكل ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦، ط١٠

٣. البيان المغرب في اخبار الاندلس ، أحمد بن محمد بن عذاري، ت: بشار عواد معروف، دار الثقافة ،بيروت ،لبنان، ج٣

٤. الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، ابو الحسن علي بن بسام ،ت:إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت ، ١٤١٧هـ –١٩٩٧م ،ج ١

٥. الروض المعطار في خبر الأقطار ، أبو عبد الله بن محمد بن عبد المنعم الحميري"ت:٩٠٠هـ"، مؤسسة ناصر للثقافة –بيروت – دار السراج ، ١٩٨٠م،ط٢، ج١

٦. الصورة الفنية في شعر ابن دراج القسطلي ، د.أشرف دعدور، دار زهرة الشرق، القاهرة ، ١٩٩٤

٧. اللباب ، ابو البقاء العكبري، دار الفكر ، دمشق ، سوريا، ج٢

٨. المعجب في تلخيص اخبار المغرب ،عبد الواحد المراكشي ، شرحه واعتنى به د. صلاح الدين الهواري ،الناشر المكتبة العصرية، ١٤٢٦ هـ– ٢٠٠٦م، ط١

٩. المغرب العربي ،أبو الحسن على بن موسى بن سعيد الاندلسي ، دار المعارف ، القاهرة ،ط٣، ١٩٥٥م ، ج

١٠. جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، محمد بن عبدالله بن فتوح الازدي، الدار المصرية للتاليف والنشر ، القاهرة،١٩٦٦م

١١. جمهرة أنساب العرب ،ابو محمد بن حزم الاندلسي ،دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣ ،ط١

١٢. ديوان ابن دراج القسطلي ، أحمد بن محمد بن دراج القسطلي ،حققه وعلم عليه د. محمود على مكي ، منشورات المكتب الاسلامي بدمشق ١٣٨١هـ –١٩٦١م ، ط١

١٣. ديوان ابن شهيد ،ت. يعقوب زكي ، دار الكتاب العربي ،القاهرة

١٤. عامريات ابن دراج القسطلي، وسام قباني ، دمشق ،سوريا، ٢٠١١م.

١٥. فن المديح عند ابن دراج القسطلي ، رسالة ماجستير ، إخلاص حسن محمد، كلية التربية ،٢٠١١

١٦. في الادب الأندلسي ، جودت الركابي ، دار المعارف ، القاهرة ،٢٠٠٨م،ط٦

١٧. مقدمة ديوان ابن دراج القسطلي، محمود علي زكي، دار صادر ،بيروت، لبنان

١٨. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، أحمد بن محمد المقري التلمساني، ت: د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت، ١٣٨٨هـ -١٩٦٨م، ط١

١٩. وسير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن احمد بن، عثمان الذهبي ،ت: شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ - م١٩٨٥، ط٣

٢٠. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، احمد بن محمد بن خلكان ، ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢،ط

٢١. يتيمة الدهر الثعالبي ، ت. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م،ج٢